فقراء الناس

قصة بقلم جورج سالم

ـ هيا نلعب !

كانت الشمس قد اخذت تنسحب ببطء ، ولكن النهار كان ساطعا ، فالقى شرذمة من الطلاب حقائبهم الصغيرة الى حائط المقبرة ، فالقوا عنهم عناء العلم والعمل . كان هذا دابهم مساء كل يوم بعد ان تصرم الشتاء واقبلت اسراب السنونو معلنة قدوم فصل الربيع ، فهم ينتشرون في الازقة والطرقات متلكئين متباطئين مستريحين الى امتداد النهار لكي يتاخروا في العودة الى منازلهم .

كانت الجماعة التي اسعى وراءها تتكون من فتيان جاوزوا العاشرة او الحادية عشرة من سنيهم ، وكنت انا اصغرهم سنا اذ لم اكن تجاوزت عامي العاشر ، كان هؤلاء الفتيان يحبون اللهو حبا جما .

ولقد اختاروا المقبرة الكبيرة مسرحا للعبهم وتعابثهم ، ذلك بان القبور مخابىء ممتازة للعبة التخبئة ، كما انها تصلح للتسابق والقفز من فوقها.

كنت اقضي جل الوقت متفرجا على رفاقي ، فانا لا احب اللعب كثيرا ، واخاف بعض الخوف من الموتى الذين يرقدون تحت الصفاح البيض ، ولكن رفاقي لم يكن ليصعب عليهم ان يحملوني على مشاركتهم لعبهم والجزي في مضمارهم ، كما حملوني من قبل على مرافقتهم الى المقبرة .

وكان آخر ما وقعوا عليه سلما خشبيا كبيرا حملوه جميعا بشوق النفس ، حتى انتهوا به بعد لأي الى آخر المقبرة فوضعوه فوق قبر كبير ، وانقسموا فريقين ، ركب كل قسم منهم احد طرفيه ، وراح السلم يعلو ويهبط ، اما انا فقد اعجبتني اللعبة وما ان تزحزح السلم عن مكانه وتوقفوا ليعيدوه الى ما كان عليه ، حتى تعلقت به ، وكنت في عداد الصاعدين الهابطين المنتشين بهذه اللعبة الفذة .

ولكن ما لبثنا ان مللنا وادركنا الاعياء ، فتباطأت الحركة ، ثم هدأت اخيرا ، فتركنا السلم ورحنا ننفض ما علق بنا من غبار ، وآنئذ لمحنا على باب المقبرة الجانبي مجموعة من الناس يتقدمهم فتى صغير يحمل صليبا خشبيا ومن ورائه كاهن قصير القامة ذو لحية بيضاء وظهر مقوس ، وكان رجال اربعة يحملون نعشا كالح اللون قميء الشكل ، ومشى وراء النعش خمسة رجال محمرة عيونهم ، فما اسرع ما مضينا نحوهم ونحن نحث الخطى .

الا انهم اتجهوا نحو غرب المقبرة فتبعناهم ، كان ضوء النهار قد اخذ يتلاشى ، فاقترب الجمع من حفرة كبيرة، ومر نسيم الماء فحمل الى وجوهنا بعض ذرات من كومة ترابية كانت تربض بالقرب من الحفرة ، فما كان منا الا ان حولنا وجوهنا خشية ان تلج عيوننا .

ولما اوقفوا على الحفرة وضعوا النعش على الارض فوقف الكاهن يتمتم بكلمات لم افهم منها شيئا ، ثم التفت الى يمينه فرآنا بالقرب منه واقفين ننظر ، وحب الاستطلاع يرتسم على تقاطيع وجوهنا ، فتنحنح قليلا ، فالتفت حاملو النعش نحوه ، وفهموا ما اراد .

« ابتعدوا »! صرخ في وجهنا رجل منهم اسود الوجه اشعث الشعر كبير اليدين ، ففزعنا من هذا الانسان المخيف ، وخشينا ان تكون له قرابة بالموت الذي نسمع به ولا نراه .

ووقف الرجال الاربعة بثيابهم القاتمة كالجدار امامنا ، الا اننا ما ابتعدنا الا لنعود ، ونحن اشد ما نكون رغبة في معرفة ما سيجري . ان هناك سرا يحاول الكاهن ان يصرفنا عنه ، أهو سر الحياة والموت ؟ فاقتربنا متمهلين وجلين نمس الارض ببطء وحذر شديدين . وكأنما عرف الرجل مرادنا فالتفت الينا قبل ان نقترب منه وصرخ مرة اخرى :

ـ « قلت لكم ابتعدوا .. » !

كان في عينيه شرر ، وفي وجهه انقباض مخيف . انحنى الرجال على التابوت فظهرت بينهم فجوات ومضى كل منهم الى ناحية، فوقفنا عن كثب نرقب ما يجري . لقد كشفوا الغطاء ببطء ووضعوه جانبا ، فظهرت كتلة بيضاء ، وتقوس الرجال الاربعة فحملوا الجسم المسجى في التابوت والملفوف بالشرشف الابيض ، وامروا حوله حبلا .

ـ « انها فتاة » !

صرخ احد رفاقنا والخوف قد عقد لسانه والبابنا جميعا . لكننا تسمرنا في مكاننا فلم نكن لنتركه . وقال ثان واسنانه تصطك : اني لأرى شعرها الاشقر ، وطمست انا رأسي مصدقا كل ما قيل ، دون ما حاجة الى ان اتحقق من ذلك بنفسي .

وانزل الجثمان الى الحفرة ، وامسك الكاهن بقبضة من التراب ، فرمى بها فوق القبر بحركة آلية . كانت انفاسنا معلقة واعصابنا متوترة، واهال الحفار التراب برفشه على الميت ، ومضى القوم في مشية رزينة، وحمل اثنان من الحمالين التابوت الفارغ وعادوا به من حيث اتوا ، فهرولنا مسرعين ولم نفقه شيئا مما جرى حولنا .

ـ لماذا ؟!

ـ لماذا تركوا الميتة بدون تابوت ؟

ـ الى اين مضوا بالتابوت ؟!

وسألت انا : لماذا لم نر موسيقيين يتقدمون النعش ، والميتة شابة ؟

ـ لماذا ؟!

وارفض شمل القوم ، فتبعنا الشماس بخطى حثيثة ملحاحة .

ـ لماذا يا عم نعوم ..؟

ـ دعوني .. الله يرحمتا .

والحفنا في السؤال والشماس يحاول ان يدفعنا بكل ما اوتي من قوة . ولكنس يئس منا آخر الامر وقد تعلقنا به اي تعلق ، فالتفت نحونا وقد بان على وجهه حنو ولكنه حنو قاس لكثرة ما رأى وسمع ، قال :

ـ « هؤلاء قوم مساكين ! »

ـ نعم ولكن لماذا فعلتم هذا ؟

ـ الله يرحمنا ! انهم لا يستطيعون ان يشتروا تابوتا ، فالاوقاف تعرهم هذا التابوت .. فقراء ... مساكين !

وحث خطاه ..

عدت الى البيت متاخرا في ذلك اليوم . كان الظلام قد خيم في كل مكان ، فانتبذت ركنا من اركان الغرفة واخرجت كتابي ورحت اقرأ ... ولكن سرعان ما كنت ابتعد عن الكتاب لأعود الى حيث كنت .. وتمر المشاهد مسرعة بالقرب من ناظري .. بين خروجي من المدرسة وعودتي الى البيت رأيت عالما واسعا واسعا هو اكبر من الزمن الذي حدث فيه .

واقتربت مني والدتي : قم فقد هيأت لك العشاء !

ـ لا اريد ان آكل .

وعدت الى الكتاب .. ولكن عبثا كنت احاول ان ادرس ..

ـ ماما ـ سأسألك شيئا ..

ـ ما اكثر اسئلتك ، قل ماذا تريد ؟..

ـ ماما ـ هل نحن فقراء ؟..

ـ فقراء جدا .. ولكن لماذا هذا السؤال ؟

فلم أجب ، واجهشت بالبكاء .

حلب جورج سالم